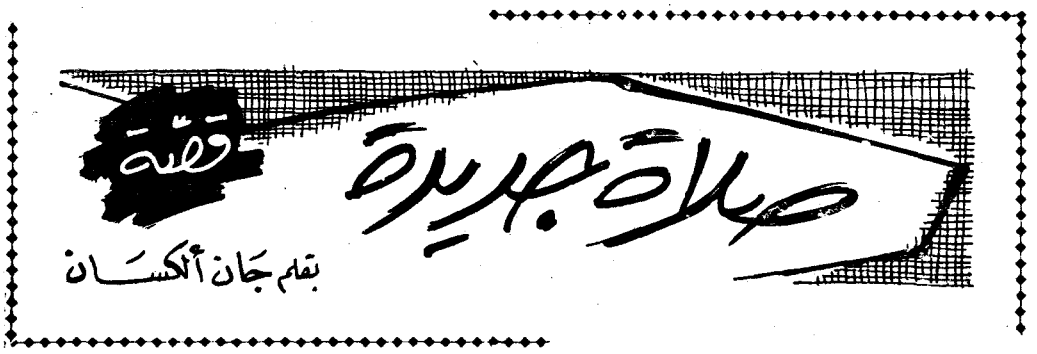

يا صديقي الطيب ...

كنا نقرأ هكذا معا ، والمعلمة جوزفين تقرأ معنا « اذا صليتم فقولوا : ابانا الذي في السموات .. ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك .. كما في السماء كذلك على الارض .. اعطنا خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نغفر لمن اساء الينا ، ولا تدخلنا في التجربة»!

ما فقهنا يوما شيئا من هذه الكلمات التي كنا نلوكها ونحن صغار ، كان حفظها بالنسبة الينا من اجل « برافو » تقولها المعلمة جوزفين (وبون بوان) حمراء يتكرم بها (ابونا) جبرائيل لتعفينا من كتابة مئة من اسطر القصاص ..

ابونا الذي في السموات ... هذا هو الله يا صديقي .. الله الطيب ، الغفور ، الرحمن ، الرحيم ، العلي ، القدير .. انت تعرفه طبعا ، ولكن تذكيري لك به ضروري ، بعد ان كبرنا وعايشنا الناس الذين ابدلوه بالف اله اجتماعي ملون .. ولهذا ترى الخبز الذي كنا نريده كفافا ليوم لم يعد يأتينا الا بعد ان ندفع ثمنه « وزنات » من الفضة صهرنا فيها التعب والاعصاب ونور العيون .

واشياء اخرى يا صديقي الطيب ، غير هذه الصلاة ، كنا نتعلمها ، ولكننا كنا نفهم معناها ، اكان الخوف هو الذي يدفعنا الى الفهم ، ربما.. كان (الشيف) الفرنسي الذي يعلمنا مباديء لغة بلاده يوحي الى عقولنا الساذجة الطفلة بان المسلمين سيذبحوننا اذا ما خرج الفرنسيون من البلاد .. كان يجعل رسغ احدى يديه عنق خروف ، ويجعل سيف يده الاخرى سكينا .. ثم يمرر السكين على عنق الخروف ويقول :

ـ « بعدين .. موسلومان .. يعمل هيك .. » ..

*

انا اعمل ليلا في مطبعة ، حروفها السوداء الصغيرة معبأة في صناديق ... وامام كل صندوق يقف عامل قوي كبير عضله مفتول .. والعمال سبعة .. وكلهم من المسلمين ، والمطبعة بحارة بعيدة اسمها « قبرعاتكة» والفرنسيون قد خرجوا من البلاد منذ سنوات ، وانا مسيحي ..ومع ذلك لم يذبحني العمال السبعة المسلمون ..

ـ « لماذا تكون صريحا » .. هكذا ستسأل يا صديقي الطيب ..

ـ لانني لا اريد الا ان افتح عيني جيدا امام الشمس ، واشير باصبع ثابتة الى مرج اخضر وسيع تغفو فيه امنيات هذا الشعب الذي يحب عيسى ومحمد ويزرع الحبة المباركة منذ القديم ..

قصتك قراتها .. « التوبة .. عنوان العبودية » .. شيء من حكاية الانسان القديمة ، منذ ان كانت الاظفار همجية طويلة ، طول اظافر «ميليا» التي تثرثر امامي سكرى في واحد من ملاهي هذه المدينة الكبيرة ..

كنت انا في الصف الرابع ، وهي ـ التي قلت عن اهلها انهم يأكلون في صحون من ذهب ـ في الصف الثالث ... وعلى المقعد الاخير من صفها كنت تجلس انت بجوار اخي ادوار ..

لم انس ذلك العالم الصغير .. ولا ذلك الاصيل الذي خيم علينا فيه وجوم عميق ونحن في الباحة الكبرى نحدق باعين فتحاتها واسعة في سعيد ومعاونيه وهم يشدون قدميك الى الفلق .. لماذا .. لانك كنت انسانا وضع في حقيبة لطفلة حلوة شعرها اشقر رسالة يقول فيها (حبيبتي .. انا احبك .. ارجو ان تجاوبيني) .. الكلمات الست التي نقلتك من التاسعة الى الرجولة تعقل المحظور وغير المحظور في بيئة ضيقة لا تتسع لغير عقول جامدة تقول ولا تفعل ..

وارتفعت العصا في يد الغراب الكبير « ابينا » وهبطت .. اكثر من ثلاثين مرة .. غاص قلبي بين جنبي يا صديقي .. وثارت رمال كثيرة بين رموش عيني ، وما تعشيت تلك الليلة ، واحتارت امي في تعليل ثورتي على (ابينا) وعصاه اللعينة ، وكاد ابي ان يصفع اخي ادوار عندما قال عنك انك لم تكن لتضرب لو كانت الطفلة بنتا لاناس يأكلون مثلنا في صحون من الالمنيوم الرخيص ...

كنت اسائل نفسي عن السر الذي يغلف حياتك .. عن العقدة الضخمة في نفسك ... فتركبني الحيرة وامضغ اسئلة ، واروح عبثا ادق ابواب الماضي لانبش القبور محاولا ان افهم لاغفر واستغفر .. حتى عرفت حكايتك ، حكاية الفلق .. مدت هذه الحكاية اصابع يابسة قوية وسحبت غشاوة كبيرة عن عيني فاذا الشمس تنضح كل شيء ، وترد العقدة لسعينا المتعب مع التجارب منذ الطفولة ..

قد تسأل يا صديقي عن هذه الانطلاقة الجديدة فيّ .. الثائرة على روتين بلدتنا التي ترتاح خاملة قرب النهر .. عن الصلاة التي كنا نرددها صغارا دون ان نفقه معانيها ، عن الاشياء الاخرى التي حكيتها لك بصراحة، عن العمال السبعة المسلمين الذين يعملون معي في المطبعة ليلا دون ان يحاولوا ذبحي ...

انا ما اعتدت يا صديقي ان اصفق للذين يأكلون في صحون من ذهب خالص ، وما اعتدت ان احتقر الذين يأكلون في صحون من المنيوم رخيص ... حكمة خالدة تعلمتها من شاعر بعد الحرب : « لا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دان » .. قرأتها مرة عليك هل تذكر ؟..

كنا ـ يومئذ ـ نسير امام دارها ، دار الطفلة ـ تزوجت الان ـ التي

وضعت يوما على الفلق من اجل اعجاب بريء بوجهها الحلو وشعرها الاشقر الطويل ... اشرت الى شحاذ يقف عند باب دار اهلها يلحف بالسؤال ... ترى ... هل كنا نحن ـ انت وانا ـ نختلف كثيرا عن ذلك الشحاذ ... كان يطلب هو رغيفا يرى في استدارته صحوة الحياة ، وكنا نريد ـ انت وانا ـ وجه ابنة اصحاب الرغيف نرى في استدارته وابتسامته صحوة الحياة ..

وما نال الشحاذ ما طلب .. وما نلنا نحن ايضا ، وظلت الاماسي الدائرية التي نرى فيها صحوة الحياة رهينة الدار الكبيرة الشامخة معتدة بالرخام الابيض النظيف والنوافذ ذات الستائر الوردية المسدولة ..

لم اهزج لها ، ولا لاهلها الذين سادوا ، ولم اشمت بك ، ولا بنفسي ولا بذلك الشحاذ .. كانت هذه الحادثة البداية ، ورحت بعدها اعمل من اجل ان ادرك حقيقة التفاوت بين صحون الذهب الخالص وصحون الالمنيوم الرخيص ...

انطلقت الى الميدان بجرأة ... دفعت ثمن جرأتي اضطهادا ولا اقسى ... اردت ان انتقم لك ، ولي ، ولذلك الشحاذ ، وللخطوط المنحنية التي كنا نسير عليها في سعينا الحياتي.. وما ارادت المراهقة ان احصد نتيجة ثورتي سوى بعض الاشواك .. وما ادرك قيمة التضحية الاناس البسطاء الطيبون الذين كانوا ينظرون الينا بعد ارتياح ـ انت تذكر هذا ـ وهم يقولون : مجانين ..

ومرت سنوات ...

وها نحن اليوم يا صديقي نقف على قمة عواطفنا واحاسيسنا المترعة.. وتبدل مفهوم الانتقام المراهق الى مفهوم اخر عرفنا معه معنى الصلاة التي كنا نرفعها صغارا ، ومعنى عدم ذبحنا بايدي المسلمين ، واخيرا معنى الاكل في صحن الذهب ومعنى الاكل في صحن المنيوم ..

في جلستنا على مرتفع قرية (برزه) حكينا هذه الاشياء ... نظرنا الى اشجار الخريف الكئيبة التي تصطف امامنا في بطن الوادي على هيئة اطار مستطيل ، وسكتنا .. كان سكوتنا ابلغ من الكلام .. كان يقينا منا بان الربيع سيدفع في هذه الاشجار صحوة حياة جديدة ..

نفس الاماني الدائرية ، امنية الشحاذ ، وامانينا ، انت وانا والاخرين.. هل تعتقد انها ذهبت الى الابد .. هل تظن ان عواطفك تحدد بحلقة ذهبية طوق بها خنصرها الرخص؟.. انا لا اعتقد هذا.. ان زوجها الذي يأكل في صحن من ذهب استمرار طبيعي للخط المنحني الذي كنا نسير عليه ، ولكنه لن يطول .. هكذا قلت لك يومئذ ، وهكذا كان ، اليوم ..

ان اختها الصغرى لم تزف الى واحد كالسابق .. كانت دفقة الخير الاولى التي نتجت عن انطلاقتنا ... كانت خطوبتها اقتراب معدني الذهب والالمنيوم ، هل نسيت حكاية الشيخ المسن الذي قال وهو يشك بذور النخيل : نحن نزرع لياكل اولادنا من بعدنا ؟ ..

نحن زرعنا يا صديقي الطيب .. زرعنا ارضنا قمحا ووردا ودرنات غنية بالغذاء ... نحن نادينا بالاصلاح وقسمنا خيرات هذه الارض على الناس اجمعين .. هل رايت الى شيوعيتنا الجديدة .. انها من شيوعية عيسى ومحمد وقائدنا الاسمر الجديد ...

من اجل انتصار شيوعيتنا الجديدة يا صديقي تباركت ثورتنا ... ومن اجلالها نرفع اليوم صلاتنا الجديدة دون ان نحرق بخور المجوس !..

دمشق — جان الكسان

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

بيروت شارع سوريا ص.ب. ٣١٧٦ تلفون ٢٧٩٨٣

تاريخ العلامة

ابن خلدون

يسر دار الكتاب اللبناني ان تزف البشرى الهامة الى جميع وزارات التربية والتعليم وجميع المؤسسات الثقافية في البلدان العربية :

انها تعلن عن قرب انتهاء طبع الموسوعة الكبرى للعلامة ابن خلدون ، وقد انتهت الان من طبع المجلد الخامس ، وقريبا جدا ينتهي طبع المجلد السادس ، ثم يتبعه المجلد السابع . ان دارنا اذ تلفت أنظار جميع هذه المؤسسات وجميع الادباء والعلماء في الاقطار العربية ان ثمن المجموعة الان مئة وعشر ليرات لبنانية تحث من يهمه أمر اقتناء هذه الموسوعة على الاسراع بحجز مجموعته ، اما عن طريق الناشر رأسا او بواسطة المكتبات الكبرى في العالم العربي ، مع العلم بان ثمن المجموعة الكاملة سوف تصبح عند انتهاء الطبع ، اي بعد مضي ثلاثة اشهر ، مائتين وعشرين ليرة لبنانية .

هذا وقد صدر حتى الآن خمسة وعشرون جزءا، ولم يبق الا ثمانية اجزاء فقط ، ونلفت نظركم ايضا الى الفهارس العلمية الهامة والى ان النسخ محدودة . فبادروا الى اقتناء نسخكم .